وكان ابن المعتز مجتازا بسامراء متأسفا عليها وله فيها كلام منثور ومنظوم في وصفها ولما استدبر أمرها جعلت تنقض وتحمل أنقاضها إلى بغداد ويعمر بها فقال ابن المعتز قد أقفرت سر من را وما لشيء دوام فالنقض يحمل منها كأنها آجام ماتت كما مات فيل تسل منه العظام وحدثني بعض الأصدقاء قال اجتزت بسامراء أو قال أخبرني من اجتاز بسامراء فرأيت على وجه حائط من حيطانها الخراب مكتوبا حكم الضيوف بهذا الربع أنفذ من حكم الخلائق آبائي على الأمم فكل ما فيه مبذول لطارقه ولا ذمام به إلا على الحرم وأظن هذا المعنى سبق إليه هذا الكاتب فإذا هو مأخوذ من قول أرطاة بن سهية المري حيث قال وإني لقوام لدى الضيف موهنا إذا أغدف الستر البخيل المواكل دعا فأجابته كلاب كثيرة على ثقة مني بأني فاعل وما دون ضيفي من تلاد تحوزه .

لي النفس إلا أن تصان الحلائل وكتب عبد ا بن المعتز إلى صديق له يمدح سر من رأى ويصف خرابها ويذم بغداد وأهلها ويفضل سامراء كتبت إليك من بلدة قد أنهض الدهر سكانها وأقعد جدرانها فشاهد اليأس فيها ينطق وحبل الرجاء فيها يقصر فكأن عمرانها يطوى وكأن خرابها ينشر وقد وكلت إلى الهجر نواحيها واستحث باقيها إلى فانيها وقد تمزقت بأهلها الديار فما يجب فيها حق جوار فالظاعن منها ممحو الأثر والمقيم بها على طرف سفر نهاره إرجاف وسروره أحلام ليس له زاد فيرحل ولا مرعى فيرتع فحالها تصف للعيون الشكوى وتشير إلى ذم الدنيا بعدما كانت بالمرأى القريب جنة الأرض وقرار الملك تفيض بالجنود أقطارها عليهم أردية السيوف وغلائل الحديد كأن رماحهم قرون الوعول ودروعهم زبد السيول على خيل تأكل الأرض بحوافرها وتمد بالنقع حوافرها قد نشرت في وجوهها غررا كأنها صحائف البرق وأمسكها تحجيل كأسورة اللجين ونوطت عذرا كالشنوف في جيش يتلقف الأعداء أواثله ولم ينهض أواخره وقد صب عليه وقار الصبر وهبت له روائح النصر يصرفه ملك يملأ العين جمالا والقلوب جلالا لا تخلف مخيلته ولا تنقض مريرته ولا يخطىء بسهم الرأي غرض الصواب ولا يقطع بمطايا اللهو سفر الشباب قابضا بيد السياسة على أقطار ملك لا ينتشر حبله ولا تتشظى عصاه ولا تطفى جمرته في سن شباب لم يجن مأثما وشيب لم يراهق هرما قد فرش مهاد عدله وخفض جناح رحمته راجما بالعواقب الظنون لا يطيش عن قلب فاضل الجزم بعد العزم ساعيا على الحق يعمل به عارفا با يقصد إليه مقرا للحلم ويبذله قادرا على العقاب ويعدل فيه إذ الناس في دهر غافل قد اطمأنت بهم سيرة لينة الحواشي خشنة المرام تطير بها أجنحة السرور ويهب فيها نسيم الحبور فالأطراف على مسرة والنظر إلى مبرة قبل أن تخب مطايا الغير وتسفر